المجلة المغربية للدراسات القانونية والاقتصادية
ISSN(P) : 1142-2489
V2, Numéro 29, SEPTEMBRE 2026
REMEJE
المجلد 2، العدد 29، شتنبر 2026
ISSN(E) : 3085-4555
Revue Marocaine des Eudes Juridiques et Economiques

جيوسياسية الإذلال والسلوك الدولي: تحليل مقارن بين الصين وروسيا

The Geopolitics of Humiliation and International Behavior: A Comparative Analysis of China and Russia

مصطفى مرزوك Mostafa Merzoug

باحث في سلك الدكتوراه، جامعة مُحَمَّد الخامس–الرباط، المغرب

ملخص:

يعرف النظام الدولي عدة تحولات بنيوية وأيديولوجية، وتعجز المقاربات الجيوسياسية التقليدية كالليبرالية والواقعية عن التفسير الكامل لسلوك القوى المراجعة مثل الصين وروسيا تجاه النظام الدولي الليبرالي. تتبنى هذه الدراسة منهجية نوعية مقارنة تبحث في جيوسياسية الإذلال كمنظور تحليلي وذلك بالاعتماد على خطاب المظلومية وكيفية تحويلها لأداة للشرعية، وتفترض أن الإذلال التاريخي ليس مجرد ذاكرة تاريخية بل محرك استراتيجي للسياسة الخارجية مع التركيز على حالتي الصين وروسيا، لتستنتج عبر تحليل مقارن الأبعاد المشتركة لسياسات الدولتين التحريفية اتجاه الهيمنة الغربية، وإبراز أن المشاعر كالإذلال والمهانة يمكن أن تكون محركا جيوسياسي للدول.

كلمات مفتاحية: الإذلال، المراجعة، جيوسياسية، الصين، روسيا.

Abstract:

The international system is undergoing structural and ideological shifts, and traditional geopolitical approaches, such as liberalism and realism, fail to fully explain the behavior of rising powers like China and Russia toward the liberal international order. This study adopts a comparative qualitative methodology, using the geopolitics of humiliation as an analytical lens and drawing on the discourse of victimhood and its transformation into a legitimacy tool. It posits that historical humiliation is not merely a matter of historical memory but a strategic driver of foreign policy, with a focus on China and Russia. Through comparative analysis, it identifies common dimensions of the two states' policies of resistance to Western hegemony. It highlights that emotions such as humiliation and indignity can serve as geopolitical drivers for states.

Keywords: humiliation, revisionism, geopolitics, China, Russia.

مقدمة:

تفهم العلاقات الدولية في غالب الأحيان من خلال المقاربات المتعلقة بالقوة، الاقتصاد، والأمن. رغم ذلك، تكشف تحليلات معمقة أن المشاعر، خصوصًا المتعلقة بالتجارب التاريخية، تلعب دورًا أساسيًا في تشكيل سلوك الدول في السياسة الخارجية. ومن بين هذه المشاعر، يُعتبر الإذلال قوة كامنة، لها القدرة على دفع الدول نحو أجندات "مراجعةrevisionist"، وتبني مواقف عدوانية، والسعي الحثيث نحو المكانة الدولية.

وفقا لذلك تتناول الدراسة الإشكالية التالية: إلى اي مدى يشكل الإذلال محددا في توجيه السياسة الخارجية للدول المراجعة مثل روسيا والصين؟

تساهم هذه الدراسة في تقديم مفهوم جيوسياسية الاذلال كمتغير تفسيري مركزي في تحليل سلوك الدول، حيث تبرز الكيفية التي يمكن بها للذكريات الجماعية، المظالم التاريخية، والإهانات المتصورة ان تؤثر تأثيرا عميقا على الخيارات الإستراتيجية لأي دولة على الساحة الدولية. حيث تنطلق من فرضية أساسية مفادها ان الاذلال التاريخي ليس مجرد ظاهرة نفسية بل أداة سياسية تستغلها الدول والجهات غير حكومية بشكل فعال لتعبئة الجماهير، وإضفاء الشرعية على القرارات في السياسة الخارجية. وسيتم التطرق إلى حالتين جيوسياسيتين مهمتين؛ الصين وروسيا. على أن يتم توضيح كيف يتم استحضار روايات الإذلال التاريخي سواء كان ذلك قرن الإذلال في الصين، او تراجع روسيا في مرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، واستغلالها لتبرير قرارات السياسة الخارجية المعاصرة، وبالتالي تشكيل الديناميات الإقليمية والعالمية. ومن خلال فهم التأثير العميق للإذلال، يمكننا اكتساب منظور أكثر دقة حول الدوافع وراء بعض أهم التحولات الجيوسياسية والصراعات في عصرنا الحالي.

الإطار النظري للدراسة:

مع تزايد الاهتمام بالمظالم التاريخية في العلاقات الدولية، اشتد تحدي النظريات التقليدية في العلاقات الدولية مثل الليبرالية والواقعية التي تولي اهتماما بالتفسيرات المادية، فرغم أنها تبقى مهمة لفهم سلوك الدول إلا أنها تفشل غالبا في تفسير دور التاريخ، الهوية، والمشاعر في تشكيل الواقع الدولي، بينما تبرز النظرية البنائية والمقاربات النقدية قدرة أكثر على تفسير وفهم التأثيرات الدائمة للإذلال التاريخي.

1- الواقعية:

من المنظور الواقعي كما يرى الواقعيون الكلاسيكيون مثل هانز مورغنتاو Hans Morgenthau والواقعيون البنيويون مثل جون ميرشهايمر john Mearsheimer فالقوة والبقاء هما الهدفان الأساسيان للدولة في عالم يتسم بغياب سلطة علياanarchy، وبالتالي فالسياسة الخارجية هي عبارة عن خيارات عقلانية للدولة لحماية مصالحها الحيوية وتجنب التهديدات، وفقا لذلك يفسر الإذلال على أنه إدراك للتراجع النسبي القوة العسكرية أو النفوذ الإقليمي، كما في حالة التراجع الروسي بعد الحرب الباردة، و قرن الإذلال الصيني.

2- البنائية:

وتوفر البنائية التي طورها ألكسندر وندت Alexander Wendt إطارًا مناسبًا لتحليل دور الإذلال التاريخي كبناء اجتماعي يشكل الوعي الجمعي للدول، وذلك عبر تأكيدها على أن السياسة الدولية عبارة عن بناء اجتماعي يتم عبر الأفكار المشتركة والمعايير والهويات، وبالتالي فالدولة ليست ثابتة بل تتشكل عبر التجارب التاريخية والذاكرة الجمعية. فخطابات الإذلال مثل "قرن الإذلال الصيني" أو روسيا "يلتسن" بعد سقوط الاتحاد السوفياتي أصبحت حاضرة في الهويات الوطنية، وتلعب دورًا أساسيًا في تشكيل السياسة الخارجية، وهي الإطار الذي يشرح الكيفية التي يتم بها تحويل خطابات الهوية إلى سلوك سياسي.

3- الإذلال التاريخي:

تُعرّف إيفلين ليندنر Evelyn Lindner الإذلال بأنه "التقليل القسري من شأن شخص أو مجموعة، وهي عملية إخضاع تُلحق الضرر بفخرهم أو شرفهم أو كرامتهم أو تجردهم منها[1]". بينما تعرفه جوسلين بارنهارت Jocelyn Barnhart "باعتباره رد فعل عاطفي على ما يُنظر إليه على أنه تدهور غير مستحق لمكانة الفرد في أعين الآخرين[2]". وتوظف هذه الدراسة مفهوم الإذلال للربط بين التجارب التاريخية والبناء الهوياتي والسياسة الخارجية.

4- المقاربات النقدية:

غير أن النظريات الكبرى في العلاقات الدولية لا تمكن من فهم أعمق لدور المظالم والمهانات التاريخية في السياسة الخارجية، ومن هنا تقدم المقاربات النقدية إطارًا أكثر وضوحًا.

- الدراسات ما بعد الاستعمارية: حيث يبرز فرانز فانون Franz Fanon النتائج النفسية والهيكلية للاستعمار، ويؤكد على تجربة الإذلال والخضوع التي لا تزال نتائجها السياسية والاجتماعية واضحة في المجتمعات المستعمرة، وهو الإطار الأبرز لدراسة قرن الإذلال الصيني.
- نظرية الاعتراف Theory of Recognition: يؤكد أكسل هونيت axel Honneth على أهمية الكرامة، والاحترام، والمكانة في العلاقات السياسية والاجتماعية، حيث يمكن للحرمان من الاعتراف وانكاره أن يؤدي إلى الصراع والمقاومة. وبالتالي، تفسير السلوك المراجعي لروسيا والصين، لاستعادة المكانة المسلوبة.

5- الثقافة الاستراتيجية:

[1] *Lindner, Evelin G. Humiliation or Dignity: Regional Conflicts in the Global Village. Journal of Mental Health, Psychosocial work and Counseling in areas of Armed conflict, forthcoming (2002), 2.*

[2] *Joslyn Barnhart THE CONSEQUENCES OF HUMILIATION: Anger and Status in World Politics, 2020 by Cornell University Press, 15.*

يعرف جاك سنايدر Jack Snyder الثقافة الاستراتيجية بأنها مجموع الأفكار، والاستجابات العاطفية المكتسبة، وأنماط السلوك المعتاد التي اكتسبها أعضاء المجتمع الاستراتيجي الوطني من خلال التعلم أو التقليد، والتي يتبادلونها فيما بينهم[1]. وسيوظف هذا المفهوم كجسر بين المشاعر التاريخية وصنع القرار السياسي.

عطفا على ذلك، ستعتمد الدراسة إطارًا منهجيًا متكاملاً يجمع بين البنائية، ونظرية الاعتراف لتجاوز حدود التفسيرات القائمة على نظرية واحدة، وتقديم فهم أكثر دقة لديناميات السياسة الخارجية، بناء على المحددات الهوياتية والنفسية والتاريخية.

الصين: قرن الإذلال والسياسة الخارجية المعاصرة

1- قرن الإذلال:

يرمز قرن الإذلال الصيني إلى الفترة بين 1839 و1949، حيث عاشت الصين في هذه الفترة سلسلة من الهزائم العسكرية والتدخلات الأجنبية. ومرَّت بعدة مراحل بدأت مع حروب الأفيون، التي شكلت في منتصف القرن التاسع عشر منعطفًا حاسمًا في تاريخ الصين الحديث. اندلعت حرب الأفيون الأولى بين الصين وبريطانيا العظمى في الفترة من 1839 إلى 1842. أما في حرب الأفيون الثانية، التي استمرت من عام 1856 إلى عام 1860، فقد خاضت الصين، التي كانت في حالة ضعف، حربًا ضد كل من بريطانيا العظمى وفرنسا. خسرت الصين الحربين، وكانت شروط هزيمتها بمثابة مرارة يصعب تحملها: فقد اضطرت الصين إلى التنازل عن أراضي هونغ كونغ للسيطرة البريطانية، وفتح موانئ بموجب معاهدات للتجارة مع الأجانب، ومنح حقوق خاصة للأجانب العاملين داخل موانئ المعاهدات. بالإضافة إلى ذلك، اضطرت الحكومة الصينية إلى الوقوف مكتوفة الأيدي بينما زاد البريطانيون من مبيعاتهم من الأفيون إلى الشعب الصيني، وكان ذلك باسم التجارة الحرة ودون مراعاة للعواقب التي ستلحق بالحكومة والشعب الصيني[2]. وهو ما ولد مشاعر مختلطة لدى الصينين، الإذلال، الغضب، الرغبة في الانتقام، كل ذلك تراكم كالضغط داخل بركان عندما انتهت الحرب العالمية الثانية عام 1945، وهُزمت اليابان. ومع ذلك، لم تنتهِ مشاكل الصين. اندلعت الحرب الأهلية بين القوميين والشيوعيين من جديد، وبحلول عام 1949، انتصر ماو تسي تونغ والحزب الشيوعي، وهرب تشيانغ كاي شيك إلى تايوان مع ما تبقى من جيشه في 1 أكتوبر 1949. وقف ماو تسي تونغ في ميدان تيانانمن، معلنا تأسيس جمهورية الصين الشعبية، كانت كلماته بسيطة لكنها قوية، لقد انتفض الشعب الصيني بعد قرن من التعرض للاضطهاد والغزو والتقسيم والإذلال. توحدت الصين أخيرًا مرة أخرى تحت حكومة قوية؛ لم يكن مهمًا أن البلاد كانت فقيرة ومدمرة ومنهكة، ما كان مهمًا هو أن الصين أصبحت الصين مرة أخرى. وفقا للنظرية البنائية فهذا السلوك يفسر على أنه إعادة الإنتاج للإذلال كعنصر مركزي في الهوية الوطنية الصينية.

---

[1] *Jack Snyder, The Soviet Strategic Culture: Implications for Limited Nuclear Operations, R-2154-AF (Santa Monica, CA: The Rand Corp., Sep 1977), 8.*

[2] Jack Patrick Hayes, "The Opium Wars in China," *Asia Pacific Curriculum*, accessed April 2026, https://asiapacificcurriculum.ca/learning-module/opium-wars-china

كانت هذه الفترة حاسمة بالنسبة للعلماء ورجال الدولة الصينيين – سواء في ذلك الوقت أو اليوم – باعتبارها لحظة تأسيسية للصين الحديثة، ومصدراً لعدد من الدروس حول طبيعة القوة الوطنية والنظام الدولي الحديث. وقد دفعت تجارب "قرن الإذلال" هذه الشخصيات إلى التساؤل: لماذا كانت الدول الغربية قوية والصين ضعيفة، وكيف يمكن للصين تحسين وضعها؟[1]

كانت حملة التربية الوطنية التي أُطلقت بعد فترة وجيزة من حادثة تيانانمن بالضبط حملة تثقيف تاريخي "حول كيف كانت الصين في الماضي" الماضي الذي يشمل الحزب، والحرب ضد اليابان، والعدوان الأجنبي. كانت الأهداف الرئيسية لهذه الحملة هي تثقيف الشعب الصيني، وخاصة الشباب، حول التجربة المهينة التي عاشتها الصين في مواجهة الغزوات الغربية واليابانية، وكيف أن الثورة التي قادها الحزب الشيوعي الصيني قد غيرت مصير الصين وحققت الاستقلال الوطني[2]. من منظور نظرية الاعتراف فهذا السلوك يعكس سعي الصين نحو المكانة الدولية.

2- الطريق إلى المكانة الدولية:

بعد وفاة ماو في عام 1976، تولى دنغ شياو بينغ زمام الأمور وغير كل شيء، ففتح الصين أمام الاستثمار الأجنبي واقتصاد السوق مع الحفاظ على سيطرة الحزب الشيوعي، وأطلق على ذلك اسم الاشتراكية ذات الخصائص الصينية. نجح هذا النهج على مدار الأربعين عامًا التالية، وشهدت الصين أسرع نمو اقتصادي في تاريخ البشرية، وتم انتشال مئات الملايين من الناس من براثن الفقر، وتحولت مدن مثل شنغهاي من مناطق نائية إلى مدن مستقبلية.

تسعى الصين منذ ثورة 1949 إلى تعزيز مكانتها الدولية عبر عدة مبادرات، تشمل الاستثمارات الرئيسية في مجال السياسة الخارجية كالبنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية (AIIB) ومبادرة الحزام والطريق (BRI)، اللتان تظهران ربط بكين بين المصالح الاقتصادية والسياسة الخارجية. وهذا بدوره يدفع قادة الصين إلى التأكيد على ضرورة أن يكون أسطولها البحري قادراً على تأمين خطوط الاتصال البحرية التي يعتمد عليها استمرار الازدهار الاقتصادي للبلاد[3]، وهو ما يفسر على أنه محاولة للتعويض عن الإذلال التاريخي باستعمال النفوذ الاقتصادي لإعادة المكانة الدولية.

وتعد تايوان الحاجز الأبرز أمام الصين نحو مصاف القوى العظمى، فإضافة إلى أنها جزء أساسي من سردية قرن الإذلال، فضمها ضرورة أخلاقية وتاريخية، والأهم من ذلك تعد تايوان ذات أهمية استراتيجية كبرى للصين، حيث تسيطر تايوان على صناعة أشباه الموصلات العالمية، فهي تنتج أكثر من 60% من إجمالي الرقائق في العالم وأكثر من 90% من الرقائق الأكثر تطوراً، ويرجع الفضل في ذلك إلى حد كبير إلى شركات مثل شركة تايوان لتصنيع أشباه الموصلات TSMC.، مما سيسمح للصين بامتياز

[1] Alison A. Kaufman, "The Century of Humiliation and China's National Narratives," testimony before the U.S.-China Economic and Security Review Commission, March 10, 2011, 3.

[2] Zheng Wang, *Never Forget National Humiliation: Historical Memory in Chinese Politics and Foreign Relations* (New York: Columbia University Press, 2012), 118–19.

[3] Bernard D. Cole, China's Quest for Great Power: Ships, Oil, and Foreign Policy (Annapolis, MD: Naval Institute Press, 2016), 166.

كبير في صراعها مع الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة في مجال الذكاء الاصطناعي والتكنولوجيا العسكرية، بالإضافة إلى سلال التوريد العالمية.

وإذا نجحت الصين في ضم تايوان، فلن يقتصر الأمر على أن تبحر أسطولها فجأة في موقع استراتيجي متميز مقابل "سلسلة الجزر الأولىThe First Island Chain"، بل ستتحرر طاقاتها الوطنية، ولا سيما طاقاتها العسكرية، بشكل دراماتيكي لتتجه نحو الخارج من حيث بسط النفوذ، إلى درجة كانت حتى الآن مستحيلة. على الرغم من أن صفة "متعدد الأقطابMultipolar" تُستخدم بشكل كبير لوصف الوضع العالمي الحالي، إلا أن الاندماج الفعلي لتايوان مع البر الرئيسي هو ما قد يشكل، من الناحية العسكرية، الظهور الحقيقي لعالم متعدد الأقطاب[1]. وباختصار فمكانة الصين كقوة عظمى كاملة الأركان يعتمد بشكل كبير على ضم تايوان.

وفقا لذلك فإن عودة الصين إلى عظمتها يعتمد على أربعة أركان أساسية:

- ✓ إعادة الصين إلى الهيمنة التي كانت تتمتع بها في آسيا قبل تدخل الغرب.
- ✓ إعادة بسط السيطرة على أراضي "الصين الكبرى"، بما في ذلك ليس فقط شينجيانغ والتبت وهونغ كونغ، بل حتى تايوان.
- ✓ استعادة مجال نفوذها التاريخي على طول حدودها وفي البحار المجاورة، بحيث يوليها الآخرون الاحترام الذي طالما طالبت به الدول العظمى.
- ✓ كسب احترام القوى العظمى الأخرى في المحافل الدولية[2].

3- الذاكرة الجماعية والسردية السياسية:

من عام 1927 إلى عام 1940، كان هناك في الصين الجمهورية عطلة رسمية تُسمى "يوم الإذلال الوطني". هذا "الإذلال الوطني" كان أبعد ما يكون عن مجرد حكاية تاريخية غامضة. بل هي سردية توفر السياق لـ لحظة تأسيس جمهورية الصين الشعبية، عندما أعلن ماو تسي تونغ للعالم في عام 1949 أن الشعب الصيني قد انتفض أخيرًا: "لن تكون أمتنا بعد الآن أمة خاضعة للإهانة والإذلال. لقد انتفضنا". بعبارة أخرى، فإن سردية الخلاص الوطني تعتمد على الإذلال الوطني؛ وسردية الأمن الوطني تعتمد على انعدام الأمن الوطني[3].

[1] Robert D. Kaplan, The Revenge of Geography: What the Map Tells Us About Coming Conflicts and the Battle Against Fate (New York: Random House, 2012), 224.

[2] Graham Allison, Destined for War: Can America and China Escape Thucydides's Trap? (Boston: Houghton Mifflin Harcourt, 2017), 105.

[3] William A. Callahan, "National Insecurities: Humiliation, Salvation, and Chinese Nationalism," Alternatives 29 (2004): 199–218.

لم يسمح الحزب الشيوعي لأحد بأن ينسى ما حدث، بل حولوا قرن الإذلال إلى جزء أساسي من الهوية الصينية، ويتم تدريسه في كل مدرسة، وتوجد متاحف مخصصة له في كل مدينة كبرى تقريبًا، والرسالة واضحة: يجب ألا يحدث هذا أبدًا مرة أخرى، فهذا ليس مجرد تاريخ، بل نفق يستخدمه الحزب الشيوعي، حيث يستخدم ذكرى الإذلال لتبرير حكمه، ويضعون أنفسهم في مكانة من أنقذوا الصين، ومن جعلوها قوية مرة أخرى، ومن أعادوا لها كرامتها.

وبالتالي فالتفسير المعتاد الذي يقدمه الحزب الشيوعي الصيني لتاريخ الصين الحديث هو كفاحه ضد الإمبريالية الأجنبية التي غزت الصين بين عامي 1839 و1949 وسيطرت عليها من خلال العدوان العسكري والحرمان الاقتصادي والهجوم الثقافي. وقد يُطلق على هذا التفسير لقب "أسطورة" أو "أسطوري"، لكنه يظل خيطًا متكررًا في موقف بكين[1]. حيث يصور الحزب أي انتقاد على أنه ضعف قد يعيد الصين إلى الأيام المظلمة. هذا الخطاب هو المحرك وراء كل ما تفعله الصين اليوم: التعزيزات العسكرية الضخمة التي تهدف إلى منع القوى الأجنبية من الغزو مرة أخرى، والتنمية الاقتصادية التي تهدف إلى منع الصين من أن تصبح ضعيفة ومهمشة مرة أخرى، والموقف العدواني تجاه تايوان وهونغ كونغ وبحر الصين الجنوبي، والذي يهدف إلى استعادة ما فقدته الصين والتأكد من ألا تتعرض الصين أبدًا للتنمر مرة أخرى كما حدث في قرن الإذلال.

كما زودت الذاكرة التاريخية القادة السياسيين بموارد خاصة لتعبئة الدعم الجماهيري. بدءًا من ماو تسي تونغ–(1949 1976)، هوا غوفنغ (1976–1978)، دنغ شياو بينغ (1978–1992)، جيانغ زيمين (1989–2002)، هو جينتاو (2002–2012)، وصولاً إلى الرئيس الحالي شي جين بينغ، حيث استخدمت أجيال مختلفة من القادة الصينيين تجارب الصين الوطنية المؤلمة لتعبئة الدعم الشعبي. وقد أكد كل من هؤلاء القادة أن مهمته تتمثل في إعادة الصين إلى مكانتها ومجدها السابقين. كما طلب كل منهم من رعاياه أن يكونوا مستعدين التضحية بالمصالح الشخصية من أجل خدمة المهمة الجماعية الكبرى للبلاد بشكل أفضل. وعبر مختلف الأوضاع السياسية، استُخدمت المهمة الكبرى المتمثلة في تجديد شباب الأمة كمبرر مهم للديكتاتورية السياسية ولمختلف القيود المفروضة على الحقوق المدنية، بدءًا من حرية التعبير وصولاً إلى الإنترنت. وقد قيل للشعب الصيني إن كل هذه القيود هي خطوات ضرورية لتحقيق المهمة الكبرى النهائية للبلاد[2].

يمكن لمشاعر العار المحيطة بالصدمات الماضية أن تدفع الضحايا إلى المبالغة في تقدير التهديدات الحالية وإثارة مشاعر قوية من الرغبة في الانتقام. وبالتالي، فإن المعتقدات المتعلقة بالتاريخ والذاكرة في الصين قد حفزت تصعيد الصراع ومسار تطوره. بالنسبة للصينيين، كان اتباع نهج متشدد دلالة على تفوقهم الأخلاقي. وهذا يساعد في تفسير سبب اعتبار العديد من إجراءات الحكومة الصينية في الشؤون الخارجية قاسية من قبل الأجانب، في حين يُنظر إليها على أنها لينة من قبل معظم الرأي العام المحلي[3].

[1] Cole, China's Quest for Great Power,161.

[2] Wang, Never Forget National Humiliation, 252–253.

[3] ibid, 117.

إذن ينتظم السلوك الصيني ضمن عملية مركبة تبدأ باستحضار الذاكرة (الإذلال التاريخي) وإعادة انتاجها بهدف توظيفيها لبناء الهوية وتشكيل الخطاب السياسي المعاصر، ومنه ترجمته إلى توجه في السياسة الخارجية يسعى إلى استعادة المكانة الدولية.

روسيا: من العشرية السوداء إلى البحث عن الانبعاث

1- أزمة ما بعد الاتحاد السوفياتي:

بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، تعرضت روسيا لأزمة اقتصادية التي عانتها نتيجة فشل "العلاج بالصدمة" shock therapy الذي تبناها بوريس يلتسن، والتي جعلت ملايين الروس يعانون الفقر والتهميش، كما سيطر الأوليغارش على المقدرات الاقتصادية للدولة.

بيد أن الأزمة لم تكن مادية فحسب، بل عرفت روسيا فراغا وجوديا وهوياتيا، فالدولة التي شكلت قوة عظمى بحجم قارة مدفوعة بأيديولوجية ثورية فازت بملايين المتعاطفين حول العالم وجدت نفسها دولة عادية غير قادرة حتى على توفير الحاجيات الأساسية لشعبها.

علاوة على ذلك توسع حلف الشمال الأطلسي NATO ليشمل دول سابقة في الاتحاد السوفياتي، حيث ضم سنة 1999 بولندا، المجر وجمهورية التشيك، وكانت أول توسع للحلف بعد انتهاء الحرب الباردة، وقد عرف الحلف أكبر موجة توسعية في سنة 2004 بضم إستونيا، لاتفيا، ليتوانيا، سلوفاكيا، سلوفينيا، رومانيا، وبلغاريا.

هذا التمدد جعل الناتو على تماس مباشر مع الحدود الروسية. ومثل قصف الحلف لصربيا سنة 1999 – المرتبطة تاريخيا وثقافيا بروسيا عبر الجذور السلافية والكنيسة الأرثوذكسية – عامل إذلال قومي إضافي، حيث رأت فيه روسيا انتهاك للسيادة وللقانون الدولي، خاصة انه تم دون تفويض من مجلس الأمن . كلها عوامل ستستغلها روسيا لتبرير سياساتها الخارجية العدوانية لاحقا.

صعد فلاديمير بوتين إلى رئاسة الوزراء سنة 1999 بعدما عين من طرف يلتسن، وهو شخصية كانت لا تزال آنذاك غير معروفة نسبيًا على الساحة السياسية الوطنية، وكان القلق الأكبر لدى القوميين هو أن يلتسين كان يسمح للولايات المتحدة بالسيطرة على روسيا، وأن حلف الناتو – الذي عمل لعقود طويلة على توسيع نفوذه – سيستمر في التأثير على العديد من الدول التي تحيط بروسيا والتي حصلت على استقلالها حديثًا. وأصبح هدف بوتين آنذاك هو بناء دولة روسية قوية تتمتع بالاستقرار الداخلي وتكون قادرة على ممارسة نفوذ فعال على جيرانها.

بعض تعرض روسيا لتفجيرات نسبت للشيشانيين شن بوتين حربا على إقليم الشيشان ونجح في ضمها ونشر السلم داخلها، وهو ما رفع شعبية بوتين ليفوز في الانتخابات الرئاسية سنة 2000. وانتعش الاقتصاد الروسي بعد صعود ثمن النفط والغاز نظرا للحروب الأمريكية في الشرق الأوسط على العراق وأفغانستان، كلها عوامل ساعدت في أن يحكم بوتين قبضته على السلطة والإعلام في روسيا، مسوقاً نفسه كمنقذ لروسيا من "انحطاط" النظام الليبرالي الذي ارتبط في الذاكرة الجمعية بالمهانة.

2- قدر الجغرافيا والطريق إلى المكانة الدولية:

"يقول فلاديمير بوتين إنه رجل متدين، ومؤيد كبير للكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وإذا كان الأمر كذلك، فربما يخلد إلى النوم كل ليلة، ويؤدي صلواته، ويسأل الله: لماذا لم تضع بعض الجبال في أوكرانيا؟[1]"

في السياق المعاصر، تُعد روسيا الدولة الأكثر هيمنة جغرافياً وتاريخياً في منطقة ''قلب الأرض"heartland. منذ عهد الإمبراطورية الروسية، مروراً بالاتحاد السوفيتي، وصولاً إلى الاتحاد الروسي الحالي، ظل السيطرة على هذه المنطقة دائماً أولوية قصوى في السياسة الخارجية الروسية والدفاع الوطني. بالنسبة للنخبة السياسية والعسكرية الروسية، فإن قلب الأرض ليست مجرد منطقة جغرافية، بل هي رمز لمكانة القوة العظمى وأساس للأمن القومي. ويُعتبر السيطرة على قلب الأرض أمرًا حيويًا لمنع تغلغل القوى الغربية، والحفاظ على الوصول إلى موارد الطاقة، وتأمين طرق النقل الاستراتيجية عبر أوراسيا.[2] ومن هنا تبرز الأهمية الجيوستراتيجية لأوكرانيا فهي تمثل:

1. ثقافياً: جزءا من الهوية والحضارة والروسية، فيما يعبر عنه بوتين بالشعب الواحد؛
2. اقتصاديا: تمثل أوكرانيا كنزا من المعادن النادرة والاراضي الخصبة الصالحة للزراعة؛
3. أمنيا: تمثل "العمق الاستراتيجي" ومنطقة عازلة حيوية، فغياب العوائق الجغرافية في أوكرانيا جعلها تاريخياً ممراً للغزاة نحو موسكو؛
4. بحريا: يمثل ميناء سيفاستوبول في القرم حجر الزاوية للسيادة الروسية؛ فبدونه يظل الأسطول الروسي حبيس الموانئ الشمالية، وتفقد موسكو قدرتها على عرض قوتها في الشرق الأوسط وأفريقيا، نظرا لأن معظم الموانئ الروسية تتجمد شتاءً، مما يحد من قدرتها على المناورة العسكرية والتجارية

إضافة الى أهميتها الاستراتيجية تعد أوكرانيا رمز لفقدان المكانة الإمبراطورية وبالتالي جزء أساسي من سردية الإذلال في الخطاب الروسي.

وتفسر الاوساط الروسية رغبة أوكرانيا بالانضمام إلى الناتو تهديدا وجوديا، وبالتالي فالصراع الغربي-الروسي على أوكرانيا ينظر إليه كصراع صفري Zero-sum game. وهو ما عبر عنه زبيغنيو بريجنسكي "بدون أوكرانيا، تفقد روسيا صفتها الإمبراطورية الأوراسية[3]".

3- البحث عن الاعتراف:

[1] Tim Marshall, Prisoners of Geography: Ten Maps That Tell You Everything You Need to Know About Global Politics (London: Elliott & Thompson, 2015), 14.

[2] Adrian Maulana Firmansyah, Teuku Rezasyah, and Satria Wibawa, "Geopolitics of Russia's Heartland and Its Relation to Russkiy Mir Ideology," Journal Locus: Penelitian & Pengabdian 4, no. 7 (July 2025):1.

[3] Zbigniew Brzezinski, T*he Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives* (New York: Basic Books, 1997), 63.

كانت العلاقة مع الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية جيدة نسبيا في سنوات بوتين الأولى، غير أن التوسع الكبير لحلف الشمال الأطلسي سنة 2004، والعمل الأحادي الجانب من طرف أمريكا خاصة مع مذهب بوش bush doctrine، عجل بتدهور العلاقات.

ستكون نقطة التحول خطاب بوتين في ميونيخ سنة 2007، حيث انتقد فيه الأحادية القطبية، وتوسع الناتو، كما عارض الهيمنة الأمريكية بقوة، ودعا إلى عالم متعدد الأقطاب، وكانت هذه اللحظة بمثابة إعلان لروسيا كدولة مراجعةRevisionist State وبعدها بعام غزت روسيا جورجيا في عام 2008 وأقامت محميتين، أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. وفي عام 2014، استولت روسيا على شبه جزيرة القرم وساعدت في إثارة التمرد في جنوب شرق أوكرانيا. ثم استخدمت روسيا قوتها العسكرية لدعم الرئيس السوري بشار الأسد ضد مصالح الغرب، قبل أن تشن غزوا شاملا لأوكرانيا سنة 2022. وهو استجابة للحرمان التاريخي من المكانة الدولية كما تؤكد على ذلك نظرية الاعتراف.

مثلت هذه الأزمات تحولاً في الخطاب المتعلق بالهوية الروسية، حيث انتقل التركيز من الدولة إلى الأمة، وصُوِّرت الدولة الروسية على أنها المدافعة عن الروس في الخارج. وتلاشت الحدود بين روسيا وأوكرانيا، حيث أصر بوتين مراراً وتكراراً على أن البلدين يشكلان في جوهرهما شعبًا واحدًا. وبلغ هذا الخطاب القومي ذروته، والذي استُخدم لتبرير المطالبات الاستعادة الإقليمية بشبه جزيرة القرم[1]، وهو نفسه المستخدم لتبرير الحرب على أوكرانيا. حيث يقول بوتين:

"إن الوحدة الروحية للشعب والقيم الأخلاقية التي توحدنا تشكل عاملاً لا يقل أهمية عن الاستقرار السياسي والاقتصادي في تحقيق التنمية. وأنا على قناعة تامة بأن المجتمع لا يمكنه أن يضع أهدافاً وطنية طموحة ويحققها إلا إذا كان لديه نظام مشترك من المبادئ الأخلاقية. ولن نتمكن من تحقيق أهدافنا إلا إذا حافظنا على احترام لغتنا الأم، وقيمنا الثقافية الفريدة، وذاكرة أسلافنا، وكل صفحة من صفحات تاريخ بلدنا[2]"

وهو ما تفسره النظرية البنائية على انه إعادة تعريف الهوية الروسية. ومع ذلك، لا تعني النزعة المراجعة الجديدة في روسيا نبذ القانون الدولي والمعايير الدولية، بل إن روسيا قد تدفع بالعكس تماماً في كثير من الأحيان. حيث تدعو إلى إنشاء نظام دولي أكثر تعددية، لموازنة الهيمنة المطلقة للنظام الأطلسي، سيسمح للمؤسسات الثانوية في المجتمع الدولي بممارسة سلطتها بشكل أكثر فعالية.[3]

تحليل مقارن:

ما الذي يفسر تباين السياسات الخارجية للقوى الشيوعية السابقة منذ نهاية الحرب الباردة؟ إن المأزق الذي تواجهه كل من روسيا والصين فيما يتعلق بمكانتهما المركزية –أي استبعادهما من جوهر القوى العظمى الليبرالية الديمقراطية، وهو مأزق متجذر

[1] Richard Sakwa, Russia against the Rest: The Post-Cold War Crisis of World Order (Cambridge: Cambridge University Press, 2017), 156.

[2] Vladimir Putin, "Annual Address to the Federal Assembly," April 26, 2007.

[3] Sakwa, Russia against the Rest, 63.

في التاريخ وتضاعف بفعل الثورات الشيوعية وسياسات الحرب الباردة – قد تفاقم مع نهاية الحرب الباردة. وقد واجهت كلتاهما تهديدات كبيرة لهويتيهما كقوتين عظمتين. أدى قمع بكين للمتظاهرين في ميدان تيانانمن إلى وضع الصين في "الجانب الخاطئ من التاريخ" في نظر الغرب، في حين أدى استمرار عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي في روسيا إلى تغذية الشكوك حول قدرة البلاد على الانتقال بنجاح إلى الديمقراطية الليبرالية. ومع ذلك، تمسكت القيادة في كلا البلدين بهدف استعادة مكانة القوة العظمى[1].

ولأن الدول تعتمد على بعضها البعض في تكوين هوياتها، بهذه الطريقة، فإن الشرط الوجودي الأساسي للدولة هو الشرط العلائقي. لا يمكن تشكيل الهويات في عزلة. عندما يتوافق فهم الدولة لذاتها مع موقع قائم في البنية الاجتماعية – على سبيل المثال كقوة عظمى – ويتم الاعتراف بها على هذا النحو من قبل المجتمع الدولي، فإن هذا الفهم الذاتي يتجسد كهوية للدولة. لا شيء حتمي أو مضمون في هذه العملية؛ فالاعتراف ليس مضمونًا أبدًا. ولذلك، إذا لم يعترف المجتمع الدولي بفهم الدولة لذاتها، فإنها ستكافح للحصول على الاعتراف الذي تحتاجه لتأمين تلك الهوية، أحيانًا على حساب أهداف أخرى، مثل الأمن المادي. باختصار، يعتمد تكوين الهوية على تجربة الاعتراف[2].

تكشف المقارنة أن الرؤى الاستراتيجية لكل من موسكو وبكين تتشابه فيما يخص استثمار سيكولوجية الضحية لصياغة أدوارهم الدولية. ورؤية الهيمنة الغربية كإرث استعماري او امتداد لسياسات تهدف إلى إخضاع القوى الصاعدة.

حيث تبرز روسيا خطاب الغدر والخيانة بعد سقوط الإتحاد السوفياتي، كما تركز الصين على سردية قرن الإذلال لتبرير مكانة الحزب الشيوعي الحاكم كضامن وحيد لأمن الصين وعدم تكرار مآسي الماضي.

ويتسم هذا الخطاب بأبعاد استراتيجية مشتركة:

1. السعي نحو المكانة: عبر الرغبة في مراجعة النظام القائم على القطب الواحد.
2. النضال من اجل الاعتراف.
3. حشد التأييد الشعبي وذلك باستخدام الذاكرة الجماعية الاليمة وربط شرعية النظام بقدرته على استرجاع المكانة المفقودة.
4. الجغرافية السياسية، حيث تعتبر اوكرانيا بالنسبة لروسيا، وتايوان بالنسبة للصين، رمزين للبعث القومي والطريق إلى مصاف القوى العظمى واستعادة الكرامة المسلوبة.

ومع ذلك تختلف استراتيجية الصين وروسيا في طريقة مواجهة الأذلال، نظرا لاختلاف نوع الإذلال، واختلاف انماط ترجمته إلى سلوك في السياسة الخارجية:

جدول1: أوجه اختلاف الإذلال بين الصين وروسيا

[1] Deborah Welch Larson and Alexei Shevchenko, Quest for Status: Chinese and Russian Foreign Policy (New Haven: Yale University Press, 2019), 187.

[2] Michelle Murray, The Struggle for Recognition in International Relations: Status, Revisionism, and Rising Powers (Oxford: Oxford University Press, 2019), 43.

	الصين	روسيا
نوع الإذلال	استعماري	ما بعد الاتحاد السوفياتي
أداة مواجهة الإذلال	اقتصادية	عسكرية
الاستراتيجية	تدريجية	تصادمية

خاتمة:

لا يمكن فهم سلوك الدول بمعزل عن ثقافتها الاستراتيجية، وذاكرتها التاريخية الجمعية، حيث أن الاقتصار على التفسيرات المادية لا يفسر في كثير من الأحيان سلوك الدول ودوافعها الكامنة أحيانا والظاهرة أحيانا أخرى، بل في كثير من الأحيان تكون الدوافع النفسية والتاريخية أقوى خاصة فيما يتعلق بالتفسير الداخلي للسلوكيات الخارجية.

وفقا لذلك، فالوعي التاريخي متجذر في أنماط تفكير راسخة، وغالباً ما تكون غير معترف بها. وكجزء من "الثقافة العميقة" الوطنية، غالباً ما تظل الذكريات التاريخية كامنةً و"منسية" ظاهرياً. ومع ذلك، خلال فترات الأزمات وعدم الاستقرار، يمكن أن تنشط الذاكرة، ويبدأ الناس في استرجاع الماضي بشكل أكثر حدة من أي وقت مضى. بعبارة أخرى، قد تصبح الذكريات الجماعية "ساخنة" أو "باردة"، اعتمادًا على درجة الحرارة العاطفية للناس. علينا أن نلاحظ هذه الخاصية المميزة للذاكرة الجماعية، لأننا إذا أردنا فهم كيفية عمل الذاكرة التاريخية، فيجب علينا دراسة العوامل أو الظروف التي تنشط تلك الذكريات التاريخية. وقد حاولت هذه الدراسة ايضاح الظروف التي يمكن أن تنشط فيها الذاكرة التاريخية لتكون عاملاً محفزاً رئيسياً في سلوك الدول[1]، مع دراسة أبرز حالتين تمثلان إحدى ركائز أزمة النظام الدولي الليبرالي الحالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. حيث وضحت الدراسة أن الإذلال متغير مفسر ضمن سببية قي سلوك الحالي الصين وروسيا، حيث تستدعي النخب الحاكمة داخل الدولتين الذاكرة الجماعية الاليمة لبناء الهوية القومية وتشكيل الإدراك، وهو ما يترجم إلى سلوك مراجع في السياسة الخارجية.

[1] Wang, Never Forget National Humiliation, 187.